خصائص التمثيل
في القرآن الكريم

بقلم
الدكتور محمود السيد شيخون
رئيس قسم اللغة العربية وآدابها

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فان من يتأمل التمثيل فى القـــرآن الكريم يجد أسلوباً فوق مقدور البشر ، ويجد تصويرا فنياً عجيبا ، يعجز عن إدراك شأوه صفوة اساطين البيان ، وتسجد له البلاغة فى اسمى معانيها .

وإنما كان التمثيل فى القرآن الكريم بهذه المثابة ، وتلك المنزلة ، لأنه يشتمل على خصائص فنية ، لا توجد فى غيره .

ومن هذه الخصائص ما يلى :

(١) تماسك الصور التمثيلية فى القرآن الكريم تماســـكا ، يجعلها بحيث لو حاولنا فصل احد الأجـزاء لانفرط عقـد الصورة ، وانتثرت معالم الجمال فيها .

ومن هنا نرى القوة البيانية متمثلة فى إعطاء الفكرة عن طريق الصورة التمثيلية مركبة الاجزاء . والعجيب فى ذلك ان التمثيل نفسه ، لم يأت عبثاً ولـكننا نراه يجيء عقب فكرة يراد توضيحاً ، وتمكينها فى نفس السامع ،

هـــذا لما نعلمه من أن الحجة ، لا تقام إلا بعد طرح الدعـــوة ، وبسط الفكرة .

تأمل قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » (١) .

فقد يتوهم أن المعنى يفهم ، لو اقتصر فى التشبيه على قوله :

مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل .

ولكن الصورة تزداد وضوحاً ، والتصاقا حين يقرن بقية أجزائها إليها ، من حمل الأسفار ، وعدم الفقه بما فيها ، واعتقاد أنها كبقية الأحمال التى تثقل الكاهل ، وتجهد القوى .

وذلك فى جميع أبعاده ، يطابق حال اليهود ، وقد منحوا التوراة؟ لتكون لهم نبعاً ، يستقون منه الحكمة والهداية ، ولكنهم يحملونها ، ويكتفون بأثقال سواعدهم بها دون أن يتدبروها وكأن على قلوبهم الأقفال (٢) .

فتمام الصورة ، لا يحصل إلا بتجميع كل هذه الأجزاء ، وإلصاق كل تلك القيود ، ومن هنا تبرز الصورة قوية التعبير صادقة الأداء .

وتأمل قوله تعالى فى تصوير نفرة الكفار من الدعوة الإسلامية :

« كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » (٣) .

فقد يظن أيضاً قصير النظر ، إذا كان يمكن الاكتفاء فى تصوير حالتهم بوصفهم بالحمر ، ولكن المراد غير ذلك ، فالمشركون ، لا يريدون إعمال عقولهم فى خلق السموات والأرض ، ليهتدوا إلى الخالق ، — وهم فى الوقت نفسه —

---

(١) الجمعة — ٥ (٢) أنظر « أسرار البلاغة » ص ٧٣ وما بعدها

(٣) المدثر / ٥٠ ، ٥١

لا يستجيبون للداعي ، بل كلما عرض عليهم من دعوته ابتعدوا عنه مسرعين وكأن فى أعماقهم شيئاً ، يحثهم على الهرب منه ، والابتعاد الخاطف عن طريق دعـــوته .

هذه الحالة ، لا تكفى لها حالة الحمر ، وإنما تقتضى كون هذه الحمر مستنفرة مدفوعة — من نفسها ، أو من غيرها — إلى العدو الجبان ، ثم تزداد الصورة وضوحا ، وتمكنا فى النفس ، عندما يلحق بها جزئية الفرار من أسد هصور ، يطلبها طعاماً لأنيابه ، ومخالبه ، فنجدها تتفرق فى كل مكان هائمة على وجهها والخوف الشديد يملأ صدورها ، فهذا أبلغ تصوير لإعراض الكافرين عن الدعوة ، وهو — فى الوقت نفسه — بعث للنفوس العاقلة على السخرية منهم(٤)

(٢) انتقاء ألفاظ التمثيل فى القرآن الكريم ، واختيارها اختيارا مناسباً للمعنى ، معطيا كل ما يتطلبه المقام .

ومن هنا كان التمثيل فى القرآن الكريم موحيا مشعا ، لا يكاد ينقر حبات القلوب ، حتى يؤثر فيها بطريقة فنية ونفسية عجيبة .

أنظر إلى القرآن الكريم حينما يستخدم أسلوب التمثيل فى تصوير فنـاء هـــذا العالم ، ودمار تلك الحياة التى يظن أصـــحابها أنها باقية خالدة ، لاشىء بعدها .

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » (٥) .

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا » (٦) .

---

(٤) أنظر « الكشاف » جـ ٤ ص ١١٨ (٥) يونس / ٢٤

(٦) الكهف ٤٥

« أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاما . . » (٧) .

فهذه آيات ثلاث ترمى إلى هدف واحد ، وهو عدم الثقة فى الحياة الدنيا إلى حد اعتبارها خالدة ، وأنه لا حياة بعدها ، ولكن الأسلوب تجده قد اختلف بعضه عن بعض فى درجات متفاوتة ، ولكنها تمثل جميعاً قمة التعبير الأدبى عن هذا المعنى الخالد .

ويبلغ القرآن الكريم قمة التأثير ونهاية الإبداع حينما يصور حال المعوقين عن الجهاد ، وما يدور فى قلوبهم من الفزع والقلق والاضطراب ، فيقول : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا » (٨) .

فالصورة الأولى فى الآيتين الكريمتين صورة المعوقين عن الجهاد الفزعين من المضى إليه ، الذين لا يريدون أن يتحملوا نصيبا من أعبائه ، فهم ذو نفوس قلقة مضطربة ، يتنازعها عاملان أساسيان : أولهما : هو الخوف الذى يسيطر عليهم من المآل الفظيع المحدق بهم لو انكشف أمرهم ، وبانت سرائرهم . ومن هنا فإنهم يرتعدون فى حركاتهم .

وثانيهما : هو الوصول إلى غاية التثبيط عن واجب الجهاد وهو عامل أقل شأنا فى واقعهم من العامل الأول ، لأنهم حينما ينادون حقيقة إلى الجهة تترجرج أحداقهم فى محاجرها ، دليلا على تقلصات نفوسهم من شدة الخوف .

---

(٧) الحديد / ٢٠ (٨) الأحزاب / ١٨، ١٩

(٩) أنظر « الكشاف » جـ ٣ ص ٢٥٥

والصورة الثانية ، هي صورة من يعالج سكرات الموت ، يتنازع نفسه المآل المظلم ، والخوف العميق من الجزاء المحتوم ، دون أن تكون عنده القوة ، أو الارادة التي يعتمد عليها في موقفه (١) .

أليست صورة المشبه به موحية كل الإيحاء بما كان عليه أولئك المعوقون للجهاد من ضعف في الارادة ، وخيبة في المآل ؟

(٣) إن عناصر التمثيل في القرآن الكريم مستمدة من الطبيعة ، تلك الطبيعة التي مازالت تشهد مرور الأجيال البشرية ، وهي ثابتة على حالتها المتغيرة . ومن هنا نلحظ ارتباط الإنسان — في أي جيل — بهذه الطبيعة التي تمثل المسرح الذي يمثل عليه الجنس الآدمي دوره في الحياة .

وكلما امتزجت عناصر هذا الاختلاط بين الانسان والطبيعة ازدادت القرابة بينهما ، وبرزت الألفة القائمة على معرفة الانسان بأدق مظاهر الطبيعية .

ومن هنا فان التمثيل في القرآن الكريم مستمر استمرار الطبيعة نفسها ، وعام يدركه الناس جميعاً ، فنحن لا نكاد نجد في القرآن الكريم تمثيلا واحداً يدرك جماله شخص دون شخص ، أو يتأثر به إنسان دون إنسان .

فالتمثيل في القرآن الكريم ، يختلف عن التمثيل عند العرب في الجاهلية مثلا ، لأن هذا الأخير مستمد من بيئة خاصة ، لا يدركه إلا من عاش في هذه البيئة ، وعاشر أشياءها ، على اختلاف طبقاتها من نبات وحيوان وجماد .

فالطبيعة هي ميدان التمثيلات القرآنية ، منها استمدت حيويتها ، وتجددها الدائمين دوام الإنسان والطبيعة .

والتمثيل عندما يستمد عناصره من الطبيعة التي تختلف من مكان إلى مكان

---

(١) الكشاف ٣ /٢٥٥

وفى زمان عن زمان ؛ يهدف إلى أن تكون مؤثراً فى كل وجدان ، مسيطرا على كل تفكير ، فالقرآن عندما يوضح أعمال الكفار فى هذه الآية : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . . . (١) .

ندرك لأول وهلة أن أعمال الكفار لا قيمة لها ، ولا غناء فيها ؛ مهما كلفت أصحابها من جهد ومشقة ، مهما بلغت من الخير ، فمثلها كمثل السراب ، وهو ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، يغرى منظرها الظامىء ، فيسرع نحوها ، متكلفا فى ذلك جهداً ؛ حتى يصل إلى مرمى البصر ، لاهث الأنفاس ؛ خائر القوى . . . ثم لا يجد شيئاً ؛ فتصور هنا كيف تكون نفسه ، بعد أن قطع مرحلة من السير ، ولم يبل صداه ، وكذلك الكافر (٢) .

ثم انظر إلى الآية الثانية : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور » (٣) .

كلما هالك تمثيل فى موقف ، وانتقلت إلى غيره وجدت الموقف أشد هولا ، وهل هناك أشد رهبه وظلمة من أمواج بحر لجى ، بعضها فوق بعض ، يكتنفها سحاب مظلم ؟ .

ان موقف الكفار الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله رهيب ، أرهب من أى شىء ، وأعمالهم مظلمة ، بل أشد ظلاما من الليل ، وليس أمامهم بصيص من النور ، يهتدون به إلى سواء السبيل .

وهذا الانسجام فى التنسيق بين الكلمات : ظلمات فى بحر لجى ، يغشاه

---

(١) النور / ٣٩

(٢) أنظر « غرائب القرآن » جـ ١٨ ص ١١٤ وما بعدها

(٣) النور / ٤٠

موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، يتنقل بك إلى خضم ، لا تكاد تدرك فيه نفسك ، فتغمرك الخشية من جانب ، وتتمثل هؤلاء الضالين متخبطين فى عالم لسود ، لا يشلج له صبح ، ولا تطلع فيه شمس كما أن كلمات المشبه به المترابطة توحي بالنهاية المحتومة التى تحيط بهؤلاء ، وبقلوبهم الكالحة التى لا ينبض بالرحمة ، ولا تلين بالحق . (١)

ثم تأمل هذه الآية : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد واشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء » (٢)

إنها تمثل أعمال الكفار فى ضياعها ، وذهابها إلى غير عودة ، بالرماد الهش الذي تزرو به الرياح ، وتذهب به بعيداً إلى حيث لا يجمع أبداً .

إن القرآن يتخذ من الرماد ، وهو عنصر من عناصر الطبيعة مثلا لأعمال الكفار الضائعة ، ثم يبلغ قمة التأثير حينما يضم إلى الرماد الريح الشديدة العاتية إن الرماد لا يقوى على الصمود أمام قوى الرياح العاتية العارمة ، إنه يتحلل ، وتتفتت ذراته ، بحيث لا شيء فى حجمها العدم ، وأعمال الكفار مهما جمعت وكثرت ، كهذا الرماد الذى انعدم ، وتلاشى فى جوف الريح الهادرة . (٣)

أرأيت أجمل من هذا التصوير الخالد ، ولا أعجب من هذا التمثيل المعجز ؟ .

إن فى هذا التمثيل من قوة التأثير ، وجمال التعبير ما يعجز عن إدراكه صفوة أساطين البيان .

---

(١) انظر « الكشاف » جـ ٣ ص ٦٩ وما بعدها

(٢) إبراهيم / ١٨

(٣) أنظر « ظلال القرآن » جـ ١٣ ص ٢٠٩٤

وتأمل هذه الآية الكريمة : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الأنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرع . . . » (١)

إن الآية تمثل حال الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم ، فى ترقيهم فى الزيادة إلى أن قووا ، واستحكموا ، بزرع أثمر ، وأينع ، ثم قوى ، وغلظ ، ثم استوى واستقام ، حتى أعجب الخاصة من الزراع والعامة من الناظرين . (٢)

إنه تمثيل عجيب ، وتصوير فنى بديع ، يستمد عناصره من الطبيعة ، فيصل إلى نهاية الإبداع ، وقوة التأثير ، إنه يجعلك كأنك أمام مشهد يفيض بالحركة والحياة ؛ يجعل الغائب مشاهداً ؛ والخفى واضحاً جليا ؛ ويقرب المراد من العقل ؛ ويرفع الأستار عن الحقائق ويعرض المعنى فى أسلوب مشوق ؛ موح مأثر .

والتمثل القرآنى بهذه الخصائص الفنية التى لا توجد فى غيره ؛ يعد من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم ؛ فأسلوبه يعجز أساطين البيان عن محاكاته ؛ ونظمه فوق مقدور البشر ؛ وتركيبه لا يقدر عليه إلا خالق الأرض والسموات . (٣)

---

(١) الفتح / ١٨

(٢) انظر « روح المعانى » ـ ٢٦ ص ١٢٧

(٣) انظر « الإعجاز فى نظم القرآن » ص ٩٢ وما بعدها .

المراجـــع

(١) القرآن الكريم .

(٢) أسرار البلاغة . (ط . القاهرة سنة ١٣٧٩ هـ)
تأليف الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ .

(٣) الإعجاز فى نظم القرآن . (ط . القاهرة سنة ١٣٩٧) .
تأليف الدكتور محمود السيد شيخون .

(٤) التصوير الفنى فى القرآن . (ط . القاهرة سنة ١٩٦٦ م) .
تأليف سيد قطب .

(٥) غرائب القرآن ورغائب الفرقان . (ط . القاهرة سنة ١٣٨١ هـ)
تأليف العلامة نظام الدين النيسابورى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ .

(٦) فى ظلال القرآن . (ط . القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ)
تأليف سيد قطب

(٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . (ط . القاهرة سنة ١٣٤٣هـ)
تأليف العلامة محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ